الفصل الرابع

صعود الشمس في السماء

(ليس لأحد أبدًا أن يقول في شيء حل ولا حرم

إلا من جهة العلم وجهة العلم الخير من الكتاب أو السنة

أو الإجماع أو القياس).

(والاجتهاد القياس) الشافعي

كانت حروب الجزيرة العربية صدى الصوت المهيب الذي أيقظ المسلمين ووحد جزيرة العرب. وكانت بطولات الدرعية بُشريات بانتشار ضوء النهار، ولما لم يُلق العرب السلاح كان انتصار دعوتهم مسألة زمن. وطريق التاريخ طويلة ليست الأحداث أو الأشخاص فيها إلا علامات طرق:

لقد انتصر الأتراك مرارًا على المسلمين، لكنهم كانوا ينهزمون أمام الإسلام فيسلمون. وعندما ينتصر الإسلام ينتصر العرب كمثل ما ينتصر العرب كلما انتصر الإسلام.

والإسلام يخدمه أهله إذا عملوا به، وكثيرًا ما يخدمه أعداؤه إذا فهموا مبادئه.

لقد انسحب "نابليون" من مصر وخلف على جيشه "كليبر". فلما قتل "كليبر" تولى قيادة الجيش الفرنسي بعده "مينو". وهدى الله "مينو" للإسلام فأسلم.

وانهزم نابليون عن مصر، فراح يطير في آفاق أوربة من نصر إلى نصر، ويهز عروشها وهي متفرقة، حتى إذا قهرته وهي مجتمعه – بدأت مبادئ الثورة الفرنسية في الانتشار بعد إذ انهزمت جيوشها. أن كانت تحمل مع عتادها الحربي مبادئ ينادي بها الإسلام هي الحرية والإخاء وحق تقرير المصير. ثم تتابعت ثورات التحرير في أوربة. وكانت تركيا أول الخاسرين، فاستقلت اليونان عنها، وتتابع انفصال الدول منها مملكة مملكة في أوربة.

وكان شروق الدعوة الوهابية من جزيرة العرب خسرانًا مبينًا للأتراك قبل قيام الثورة الفرنسية، وفيما بعدها، فهي قد شرقت وغربت كهيئة انتشار الإسلام من جزيرة العرب، وكانت شرارتها تشعل الضوء والدفء، وتحدث القوة المحركة في بدلان تدين بالولاء لتركيا فانتهى أمرها

بالاستقلال عنها. وصاحب انتشار الدعوة ظهورُ أثر المطبعة وتعليم الناس، فتتابع على مبادئ الدعوة رجال لا يكتفون بمجالس العلم، بل يعملون ويجاهدون في شتى الميادين، فكرية أو سياسية، أو عسكرية. وتعمل الانتصارات والهزائم في خدمتهم، لنشر المبادئ التي نادى بها محمد ابن عبد الوهاب.

والذين يعلمون ولا يعملون يبخعون أنفسهم [٩٠].

* * *

١- لقد علمت تجارب الدعوة المسلمين على مدار قرون ثلاثة أن الوسيلة القاصدة للإصلاح هي البدء بتطبيق الشريعة وتنمية عقائد المنحرفين، لإقامة الجماعة الصالحة التي تنبت الرجال الصلحاء، وإن احتاجت إلى سنوات. وما السنوات في عمر الإسلام إلا سويعات.

ودرس الدعوة قائم كذلك للعالم. فالشرق والغرب الآن يرجعان البصر يمنة ويسرة يبحثان عن مخرج من شراك أوقعتهما فيها عبادة المادة والإحساس الذي يستبد بضمائر الناس كلما حققوا نصرًا علميًا أو اقتصاديًا. لا يقابله نصر على أنفسهم، إذ يتجلى لهم أنهم يظفرون بفراغ لا يملؤه إلا القيم الدينية التي تهب معنى للحياة. فالطريق مفتوحة أمام رجال الدعوة الإسلامية إلى القلوب في الشرق والغرب. يقول جورج سارطون ما يردده الآن كثيرون:

(لقد سبق للعرب أن قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم طوال ألفي سنة قبل أيام اليونان ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم في المستقبل القريب أو البعيد!).

٢- أما المنهج السياسي المحض للإصلاح فقد سار عليه الأتراك في القرن التاسع عشر، وانتهى بهم في القرن العشرين إلى دولة علمانية حرص دستورها على رفع الدين من نصوصه، ثم أطرحت مجلة الأحكام العدلية المستقاة من الفقه الحنفي واستوردت قوانينها من

---

(٩٠) عاصر ولي الله الدهلوي في الهند (١١١٤ - ١١٧٦) محمد بن عبد الوهاب من مطلع حياته وكان علمًا يشار إليه بالبنان في مذهب أبي حنيفة، يستنكر الكثير من الانحرافات التي تحاربها الدعوة ومع ذلك لم يتأثر به المجتمع الإسلامي إلا كهيئة تأثير الفقهاء في الدارسين عليهم، لأنه اكتفى بالعلم دون العمل ولم يجاهد في سبيل فكر، في حين أحدث السيد أحمد (١٧٨٢ - ١٨٣١) - إصلاحًا كبيرًا في الهند بجهاده، ولم يكن حظه من العلم حظ الدهلوي.

تشريعات سويسرية فصنعت في نفسها ما حاول أن يصنعه نابليون، إذ كان بمصر، فعرض في أول جلسة للديوان استبعاد الشريعة لاستيراد قوانين فرنسية فيما بعد فرفض علماء الأزهر.

وكهيئة نابليون اختط محمد علي للإصلاح خطة استيراد "عقلية أوربية" وانتهت خطته بحفدته إلى استيراد التشريعات الأوروبية بدلاً من الشريعة!

فلما احتلت الجيوش البريطانية مصر في سنة ١٨٨٢ كان من انتصارات البريطانيين على مصر خاصة والمسلمين عامة – أن قرر مجلس وزارة الاحتلال العدول عن قرار مجلس الوزراء في سنة ١٨٨١ بتقنين الشيعة الإسلامية. وأقر الإنجليز استيراد قوانين أوربية لتطبيقها على المصريين فلم تقدر القوانين على أن تجعل المصريين أوربيين، ولم يقدر المصريين مع وجود هذا القانون أن يطبقوا الشريعة إلا فيما يتعلق بالعبادات والأحوال الشخصية.

٣- وأما المنهج التعليمي فمنهج تجريبي يستعمل الزمن إذ لا تسعفه القدرة، ويفت في عضده خذلان السلطة له، مع تعويله عليها. وقد سلكه كثيرون في القرن الثالث عشر الهجري – التاسع عشر الميلاد – أظهرهم عالمان مصريان من أشهر علماء الأزهر أولهما رفاعة الطهطاوي (١٧٩١ – ١٨٧٢) وقد أبعده السلطان إلى السودان، فلما رجع انكب على التأليف والترجمة والتعليم وسار محمد عبده أشواطًا بعيدة على المنهج ذاته. وقد نفته من الوطن محكمة عسكرية. فلما عاد سار على دربه وأيده الشعب فيه.

والمنهج أكثر اقترانًا بمحمد عبده لأنه "جاهد" الإنجليز والأتراك والخديويين والعلماء المعممين، وتوجه طول حياته وجهة إصلاح الأزهر، وفي الإصلاح الديني إصلاح الجماعة.

فالمنهج التعليمي يمشي بساقين هما القيم الدينية وتأييد السياسيين أصحاب السلطة. ومن ثمة عثرات أصحابه كلما أصاب الوهن ساق السياسة.

* * *

من أجل ذلك كثر خلاف دعاة الإصلاح مع الساسة، واختلط كل من تلاميذ محمد بن عبد الوهاب للإصلاح خطة تنجحه: فكان المهدي في السودان أقدر على الإصلاح؛ لأنه "حارب" وانتصر وقاد المجتمع. وعاش السنوسي بدعوته بعيدًا عن مجال السلطة في زوايا أقامها بالجبل أو في الصحراء التي تعيش فيها القبائل. واقتصر الشوكاني وهو في سدة الحكم على القضاء والتأليف في محاربة البدع. وسار الألوسي بالعراق والكواكبي في الشام على الدرب، أما السيد أحمد في الهند فقد استعمل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتلمذة هؤلاء لابن عبد الوهاب لا يستبعدها عدم اللقاء أو انصرام الزمان؛ فلقد تصارمت الأجيال بين العُمَرين. وعمر بن عبد العزيز نخبة المدرسة التي تعلقت بأسباب عمر بن الخطاب وإن لم يلقه.

الشوكاني: محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ – ١٢٥٢ هـ) أفتى في العشرين من عمره وولى القضاء بصنعاء باليمن حيث الأئمة – الحكام – شيعة. والشعب قسمان فسكان المرتفعات شيعة وسكان تهامة شافعية.

وانضافت إليه الوزارة بعد سنوات، فتمرس بمسئولية الحكم. وخلع ربقة التقليد، فلم يحصر نفيه في دائرة المذهب الزيدي، بل بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق.

وقد ترجم حياة آل تيمية في خطبه كتابه (نيل الأوطار في شرح "منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار" لابن تيمية "مجد الدين".

بهذا يلتقي هو وابن عبد الوهاب في منبعها العلمي وفي سلفية آل تيمية. ولما مات ابن عبد الوهاب رثاه الشوكاني أكثر من مرثية.

يقول في نيل الأوطار كلامًا قاله من قبل ابن تيمية "تقي الدين" وابن القيم وابن عبد الوهاب (وكم سرى عن تشييد ابنه القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام. منها اعتقاد الجهلة كاعتقاد الكفار للأصنام، وأعظم من ذلك ظنهم أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر، فجعلوها مقصدًا يطلب لقضاء الحوائج، وملجئًا لنجح المطالب، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم. وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا، وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئًا كانت الجاهلية تفعله إلا فعلوه؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حميةً للدين الحنيف لا عالمًا ولا متعلمًا ولا وزيرًا ولا ملكًا.

وقد توارد علينا من الأخبار ما لا يشك فيه أن كثيرًا من هؤلاء "القبوريين" أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجرًا، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق. وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة! فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين، أي زرء للإسلام أشد من الكفر وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله؟

وأي مصيبة يصاب بها المسلمون مثل هذه المصيبة؟ وأي كفر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك المبين)؟

وأكثر الشوكاني من التأليف في أسباب تأخر المسلمين وبدع الصوفية الفلاسفة، ومن تأليفه كتاب (قطر الولي على حديث الولي)، وفيه ينفي معرفة أي ولي للغيب، ويقرر مذهب ابن تيمية في أن أولياء الله هم المؤمنون المتقون، وأن الولاية لله ومن الله، ينالها من يعمل عملاً صالحًا في الفروض والنوافل.

وكمثله يوجب الاجتهاد ويندد بالتقليد يقول:

(والذي أدين به أنه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف وشطر من مهمات كليات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة. ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأي سواء كان قائله واحدًا أو جماعة الجمهور).

وفي كتابه (الدواء العاجل لدفع العدو الصائل) نبه على أن "الفتنة لا تنزل بالأمة ويتغلب عليها العدو إلا لما ترتكبه من المعاصي عقوبة من الله لها مثل عقوبة الخوارج ثم القرامطة والباطنية ثم الترك، وكما يقع كثير من تسليط الفرنج وغيرهم".

وانتشر علم الشوكاني في الهند – وباكستان الحالية – وفي سائر ديار المسلمين ومصر خاصة ومن كبار تلاميذه محمد صديق خان (١٢٤٨ – ١٣٠٧) أمير مملكة بهويال.

السيد أحمد: حج السيد أحمد (١٧٨٢ – ١٨٣١) من الهند في سنة ١٨٢٢، والسعوديون منهزمون من بضع سنين لكن أنباءهم تذيع أسباب الدعوة للمذهب، ثم عاد إلى البنجاب ينشرها في رقعة كبيرة في شمال القارة الهندية حتى البنجاب.

وكثر أتباعه واستعملوا القوة لمقاومة البدع، وخشيت بأسهم الحكومة الإنجليزية واعترضت طريق الإصلاح التي سلكوها.

وظهر أثر السيد أحمد بالإصلاح التعليمي والاجتماعي بين أسباب النهضة التي نهضتها الهند وباكستان في القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد.

السيد محمد بن علي السنوسي: (١٢٠٤ – ١٢٧٦ = ١٧٨٧ – ١٨٥٩) من ذرية المثني ابن الحسن بن علي.

قضى بواكير حياته في خواتيم الملحمة التي صنعتها دعوة ابن عبد الوهاب، وتنقل بين صحراء مستغانم بالجزائر، وبين جزيرة العرب ذهابًا وجيئة.

طلب العلم في فاس بالمغرب، ورحل إلى مكة فتلقى العلم على علمائها، وبنى زاوية للتعليم في جبل أبي قبيس بمكة، ثم قفل راجعًا إلى الجبل الأخضر في ليبيا سنة ١٢٥٥، فأكثر من بناء الزوايا هنالك، ثم رجع سنة ١٢٦٣ إلى مكة يقيم في الزاوية، ويحدث الحديث ويفقه الطلاب ثم قصد إلى مصر سنة ١٨٤٠ ليبقى بها عامين، فألقى دروسًا بالأزهر، وأصبحت القاهرة بعد ذلك ملجأ لبنيه كلما أحدق بهم خطر، بعد إذ صار إليهم ملك ليبيا.

ومن القاهرة بعث إلى واحة جغنوب بالصحراء في وسط أفريقية، فبنوا له زاوية وانتقل إليها سنة ١٢٧٣ لنشر طريقته إلى أن توفي سنة ١٢٧٦.

وفي سنة ١٣١٣ انتقل مركز الدعوة من جغنوب إلى واحة الكفرة.

والسنوسيون يركزون على التعليم وتحفيظ الكتاب الكريم وتضييف ابن السبيل، ليعلموه العقيدة الصحيحة؛ وشراء العبيد وتحريرهم، وإنكار التضرع للأولياء وزيارة القبور للتوسل، وشرب القهوة والتدخين، ويحضون على السعي للرزق، فالسنوسية منهاج حياةٍ حجر الأساس فيها هو التعليم ونشر الإسلام على أساس التوحيد الخالص.

محمد بن أحمد "المهدي" ولد سنة ١٨٤٣ ومات سنة ١٨٨٥. من أسرة قيل: إنها من الأشراف الحسينية أصلها في مصر بمحافظة أسوان. حفظ القرآن ودرس التفسير وصار عضوًا في الطريقة السمانية التي قامت في السودان في أوائل القرن. وانتقل إلى (جزيرة أبا)، فأقام خمسة عشر عامًا يهدي الناس إلى الدين الصحيح، ويمنع الأذكار وينهي عن التبرج والإقبال على الملذات ويأمر الناس بالزهد.

وفي سنة ١٨٨١ أعلن أتباعه أنه المهدي المنتظر، مع إلحاح الرجل في الإفصاح عن أن مهمة حياته هي إحياء السنة وتعليم العقيدة الصحيحة.

ولما نجحت دعوته أعلن أنصاره الثورة على الحكومة، وكانت مصر والسودان دولة واحدة، فحارب جيوش الحكومة – وكان يقودها إنجليز يضمرون لها الشر بعد احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ – واستولى على الخرطوم سنة ١٨٨٥. وأعلن أنه يريد أن يأسر القائد الإنجليزي في الخرطوم حيًا ليفك به أسر القائد المصري أحمد عرابي الذي نفاه الإنجليز إلى إحدى جزرهم بعد هزيمة الجيش المصري سنة ١٨٨٢ في معركته مع الإنجليز.

انتصر المهدي فأقام دولة بالسودان، وأصدر التشريعات المقاومة البدع والعادات التي لا تقرها الشريعة. وأقام الحدود. ومد حد القذف فعاقب بنفس العقوبة على كل لفظ شوه وجه الأدب، وطبق حد الخمر وجلد على التدخين ثمانين جلدة مع حبس أسبوع. وغرر على الرقص والقمار، وقلل المهور فللبكر عشرة ريالات وللثيب خمسة. وأباح طلاق زوجة الغائب بعد سبعة أشهر إذا لم يترك لها ما تنفقه إلا أن يكون في جهاد.

واختار مذهب أبي حنيفة في فقه المعاملات.

ويضع المهدي وثورته في مكانهما الصحيح في التاريخ تصريح من الشيخ محمد عبده حينما قصد إلى لندن بعد نفيه من مصر فقال للحكام الإنجليز: (لا خطر من حركة المهدي؛ إنما الخطر على مصر من وجود الإنجليز فيها، فإذا غادر الإنجليز مصر فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها، وهو الآن محبوب من الشعب المصري، لأنهم يرونه المخلص لهم من الاعتداء الأوروبي، وينضمون إليه عند حضوره).

محمود شكري الألوسي:[٩١] (١٢٧٣ – ١٣٤٤) الألوسيون أشراف في العراق. أشهرهم أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسي صاحب التفسير الشهير (روح المعاني) ١٢١٧ – ١٢٧٠، وكان مفتيًا حنفيًا للعراق ومن أبنائه عبد الله (١٢٤٨ – ١٢٩١) جلس للقضاء على مذهب أبي حنيفة بعد إذ كان شافعيًا. ومن أولاد عبد الله محمود شكري الألوسي المعروف بجمال الدين أبي المعالي الألوسي.

---

(٩١) صار محمود شكري رئيس المدرسين في إحدى مدارس بغداد، وظفر بجائزة لجنة اللغات الشرقية في "استوكهولم" بالسويد بكتابه (بلوغ الأرب في أحوال العرب) سنة ١٨٨٣، ثم نفاه الأتراك من بغداد زمانًا، ثم أطلقوا سراحه فزاد عزًا في قومه.

ولما هجمت الجيوش البريطانية على العراق بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) استغاثت تركيا بأمير نجد (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) واستعانت بواحد من محبيه هو محمود شكري الألوسي ليفاوضه. فأبدى الأمير له معاذير، ورفض الإسهام في مناورات دول تغتصب أرض العرب.

وفي سنة ١٣٣٥ سقطت بغداد في أيدي الإنجليز فعرضوا على محمود قضاء بغداد فمنصب الإفتاء فمشيخة الإسلام فلم يقبل، فلقد كان يستصحب قول أبي ذر لمسلمة: (يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينك أفضل منه)!

تعلم محمود شكري الألوسي في حداثته على أبيه، فلما مات كفله عمه السيد نعمان خير الدين الألوسي (١٢٥٢ – ١٣١٧) مؤلف كتاب (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين): أحمد بن حجر وأحمد بن تيمية. ومن تأليفه كذلك مختصر ترجمة ابن الجوزي لأحمد بن حنبل.

وكان يستنسخ مريديه وتلاميذه كتب ابن تيمية ليتدارسوا مبادئه، ويؤلف الكتب في ذم الذين يستغيثون بغير الله والمعطلين والمشبهين من المتصوفة والقادحين في فقه ابن تيمية.

كما ألف كتابًا أسماه (فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وكتابًا أسماه (القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع). وكان مدفعًا من بقايا عتاد حربي، نصبه الأتراك في بغداد سنة ١٠٤٧ فأصبح وثنًا يحج إليه العامة ويقدمون النذور له!

وفي مؤلفه (تاريخ نجد) شرح العقيدة السلفية وشمائل الناس ومعايشهم، فتحدث عن أمراء آل سعود وجهادهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأرخ لعلماء نجد، وخص منهم محمد بن عبد الوهاب [٩٢].

محمد عبده: – (١٢٦٦ – ١٣٢٣ = ١٨٤٩ – ١٩٠٥)

---

(٩٢) قال عنه المستشرق ماسنيون وهو يرثيه: (كتب ليحبب للمسلمين المذهب الحنبلي على الطريقة الحديثة الوهابية، وقد نشر كل هذا باسم مستعار) ولا شك خفيت بعض الكتب على ماسنيون فالألوسي قد كتب كتاب (فضل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وقال في تقديمه (الإمام محيي السنة، ومجدد الشريعة النبوية أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي تغمده الله برحمته...). فلم يكن الألوسي ليخفي أو يخالف أو يكتب باسم مستعار.

وأجمل الأب أنستاس الكرملي حياة محمود شكري الألوسي وشخصيته في الكلمات التالية عندما رثاه: (كانت كتاباته غارة شعواء على الخرافات المتأصلة في قلوب الجهلة والتقاليد الموهومة التي لا نصيب لها من الدين... وكان قد وصل إلى حالة قاسية من الحاجة إلى المال في عهد الاحتلال البريطاني، لأن الأتراك أفقروا البلاد، فلما عرف ذلك المعتمد السامي (البريطاني) برسي كوكس أهدى له ثلثمائة دينار ذهبًا إنجليزيًا وكلفني تقديمها إليه. فلما أتيته بها رفضها بتاتًا وقال: (خير لي أن أموت جوعًا من أن آخذ ما لم أتعب في كسبه) إلا أن فاقته كانت وقرًا على وعلى محبيه فتكلمت مع أولي الأمر وتمكنت من أن يعين قاضي قضاة المسلمين في العراق، فلما وقف على تنصيبه أبي وقال: (إن هذا المقام يستلزم علمًا زخرًا وذمة لا غبار عليها ورقوفًا تامًا على الفقه.. وأنا لا أشعر بذلك ووجداني يحكم على بأني غير متصف بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضي قضاة المسلمين).

تلمذ محمد عبده لجمال الدين الأفغاني، وكتب في الصحف وألف رسالة الواردات ثم حاشية على شرح الدواني ثم تخرج من الأزهر سنة ١٨٧٧. فعين مدرسًا به، فمدرسًا بدار العلوم، فمحررًا بالوقائع الرسمية سنة ١٨٨٠، ثم اشترك في الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ وحوكم ونفي في العام ذاته.

وأنشأ في منفاه مع جمال الدين جريدة العروة الوثقى في باريس لإيقاظ أهل الإسلام وعاد إلى مصر فعين قاضيًا سنة ١٨٨٩، فمستشارًا بالاستئناف فعضوًا بمجلس الأزهر سنة ١٨٩٥، فمفتيًا للمسلمين سنة ١٨٩٩، فرئيسًا للجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٩٠٠، فتتابع على رياستها بعده سلطان مصر حسين كامل، والأمير يوسف كمال. فعدلي يكن فمحمد محمود من رؤساء الوزارة فشيخا الأزهر المراغي ومصطفى عبد الرازق.

وفي سنة ١٩٠٥ استقال من مجلس إدارة الأزهر احتجاجًا على الخديو وبعد أشهر وافته منيته، فلم يشغل أحد مكانه في أمة الإسلام حتى هذه الساعة، وهو أكبر علماء الأزهر أثرًا في الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر، والكلام عنه كلام عن واقعنا، ولا تزال كلماته في العروة الوثقى برامج إصلاح لعالمنا المعاصر. وكلامه في البدع كلام السلفيين والمتكلمين، وطريقته في الإصلاح طريقة "الأصوليين" و "العلميين" جميعًا.

يقول إثر عودته من منفاه عن أصول منهجه للإصلاح: (إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار. وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة وأن نذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات فنعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا فلا نمضي عشر سنين وإلا ويكون عندنا التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينشر أحسن الانتشار، فقال: أنت مثبط!)..

وسنراه رجل قول وعمل بلغ في كل منهما الذروة: يلي الوظائف الكبرى ويخوض فيها المعارك الضخمة، ويتعلم الفرنسية. ويفحم بكتاباته أحبار المسيحية وفلاسفتها أمثال هانوتو ويكتب في الصحف. ويفسر القرآن، ويصب اللعنة على السياسة الإنجليزية وهو في العاصمة الإنجليزية. وسنراه الشيخ الكبير لمدارس المصلحين والسياسيين المصريين كافة، وفي طليعتهم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩، وقاسم أمين قائد حركة تعليم المرأة، والشيوخ والعلماء الأحرار في الأزهر محمد مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرازق وعلي سرور الزنكلوني وعبد المجيد سليم

ومحمود شلتوت، كما رأس، وهو في الوقائع الرسمية، سعد زغلول وإبراهيم الهلباوي [٩٣] ووفا زغلول وعبد الكريم سليمان وتتلمذ في رياسته رؤساء الوزارات سعد وعدلي ورشدي وثروت ومحمد محمود والزعيمان محمد فريد وطلعت حرب والشيخان المراغي ومصطفى عبد الرازق.

وظل على ما بدأ به حياته في عهد الطلب متقشفًا زاهدًا يقاوم الخرافات والجهالات في كل موقع شغله أو اطلع على عيوبه أو استعان به أصحابه لإصلاحه.

* * *

ولما كرثت مصر كارثة الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ واجتمع عليها الحكم التركي يمثله الولاة من أبناء محمد علي والاستعمار البريطاني كتب عن محمد علي – وحفيده الخديو عباس حلمي الثاني على عرش مصر يحتفل بمرور مائة عام على تأسيس دولته – فقال: (ماذا صنع محمد علي؟... لم يستطع أن يُحيى ولكن استطاع أن يميت!.. اشرأبت نفسه لأن يكون ملكًا غير خاضع للسلطان العثماني، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب الأوربيين فأوسع لهم في المجاملة!

..... وانقلب الوطني غريبًا في داره غير مطمئن في قراره.. فاجتمع على سكان البلاد ذلان: ذل ضربته الحكومة الاستبدادية، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة...)

وقال عن محاربة محمد علي للدين: (لا يستحي بعض الأحداث من أن يقول: إن (محمد علي) جعل جدران سلطانه بنيةً من الدين [٩٤]. أي دين كان دعامة لسلطان محمد علي؟ دين التحصيل! دين الكرباج! دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده؟ وإلا فليقل لنا أحد من

---

(٩٣) أول النقباء وأشهرهم في العالم العربي – انظر (المحامون وسيادة القانون) للمؤلف طبعة ١٩٧٦ ص١١ إلى ص ١٢٩.

(٩٤) كان فهم محمد علي وأسرته للدين مجرد إقرار بالإيمان دون القيام بعمل صالح أو إدراك صحيح لحقائق التوحيد. ومن أمثال ذلك دعوة حفيده إسماعيل علماء الأزهر ليقرءوا صحيح البخاري إبان هزائم جيشه في حرب بالحبشة لينصر الله الجيش، فكانوا يقرءون في القصر وكانت الجيوش تنهزم في الميادين فقال لهم: إما أنكم لا تقرءون وإنما أنكم لستم بعلماء! فأجابه واحد منهم: إن النبي ﷺ يقول: "لتأمُرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم).

الناس: أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامي الجليل؟ لا يذكرون إلا "مسألة الوهابية" وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين...).

ولا عجب – وهذا رأيه في محمد علي وفي (المسألة الوهابية) – أن يقول فيه أنصار محمد علي وأعداء ابن عبد الوهاب: (إن مبنى أصول محمد عبده في ضلالته على أصول ابن عبد الوهاب) (٩٥).

---

(٩٥) عبر محمد عبده عن المنهج السلفي بسيرته في الكفاح وبمؤلفاته أصدق تعبير وواجه الملحدين والدهريين والمشككين. يقول في كتابه رسالة التوحيد:

إن الله وهب لنا الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه في وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه، لها أو عليها. وأما ما تتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا... فذلك إنما يرد إلى الله وحده. فلا يجوز أن نخشع إلا له ولا نطمئن إلا إليه.. لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله... فهو وحده مالك يوم الدين.. اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها بما لو اختلف في الصورة والشكل أو العبارة أو اللفظ لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة، فتبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة ... وتخلصت تلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وغيرهم. وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض قاهر الناس أجمعين... سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها هي: كإرادة الرؤساء والمسيطرين، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما ظن في القبور والأحجار، والأشجار والكواكب ونحوها وانفكت عزمته من أسر الوسائط والشفعاء والكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلي حق الولاية على العبد فيما بينه وبين الله الزعمين أنهم وسيلة النجاة...

صار الإنسان بالتوحيد عبدًا لله خاصة، حرًا من العبودية لكل ما سواه... ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم... ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء... طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه. ويقول في الاجتهاد والتقليد: (أنحى الإسلام على التقليد... واقتلعت أصوله الراسخة وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته... علا صوت الإسلام على وساوس الطعام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون إلى طرق البحث هادون.

عاب أرباب الأديان في اقتفائهم آثر آبائهم ... فأطلق بها سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان قد استعبده. يقضي فيه بحكمته وحكمته...!

بهذا وما سبقه تم للإنسان أمران عظيمان طالما حرم منهما: وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر. وبهما كملت له إنسانيته وق قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم: إن نشأة المدنية في أوربا إنما قامت على هذين الأصلين... ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد السيد

أعلن محمد عبده – بعد تقلبه في الوظائف وأسفاره في الممالك وكفاحه لإصلاح الجماعة أنه في طول حياته كان يتأخى "المنهج السلفي" الذي يستعمل العقل ويتسع للاجتهاد، فقال في مذكراته التي كتبها في خواتيم حياته:

(ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف بالرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله... وقد خالفت في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا الدهر ومن هو في ناحيتهم.

أما الأمر الآخر فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير....

المسيح، وقرر هذا الحكيم أن هذا الإشعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الأزمان.....!)

ويقول: (واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنًا وانحرفوا عن طريق الدين أزمانًا فوقف وقفة القائد خذلته الأنصار... لكن الله بالغ أمره، فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم التتار يقودها جنكيز خان، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين... ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام دينًا.. جاءوا لشقوتهم فعادوا لسعادتهم...)

ويقول في الصفات : (ويجب أن يقتصر الاعتقاد على ما هو صريح في الخير، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني، وشرط صحة الاعتقاد ألا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين. فإن ورد ما يوهم ظاهر،... وجب صرفه عن الظاهر: إما بتسليم لله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد وإما بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة).

ثم يقول: (إن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجرى العادة، بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد، ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة).

ويقول في خوارق العادات والكرامات على يد غير نبي: (وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه يجب عدم الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي الله معين بعد ظهور الإسلام، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي، ولا يكون بإنكار هذا مخالفًا لشيء من أصول الدين ولا مائلاً، عن سنة صحيحة ولا منحرفًا عن الصراط المستقيم، اللهم إلا أن يكون مما صح في السنة عن الصحابة. أين هذا الأصل المجتمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء، وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون).

وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في أمرين: كليهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب... وأضاف أن الحكومة العادلة هدفه، وأن الوسيلة إليها هي بذر بذور التعليم وتربية غراسها في الأمة. قال:

(**وهناك أمر ثالث** كنت من دعائه والناس جميعًا في عمى عنه وعن تعقله ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية؛ وما أصابهم الدهر بالضعف والذل إلا بسبب خلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز ما بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.... جهرنا بهذا القول والاستبدادُ في عنفوانه والظلم قائم على صولجانه...! نعم إني في كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع، ولكني كنت روح الدعوة ولا أبرح أدعو دعوتي في الدين، وأطالب بالإصلاح في اللغة وقد قارب. أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبيره؛ لأني قد عرفت ا،هـ ثمرة تجنيها الأمم من غرس تغرسه، وتقوم على تنميته السنين الطوال...).

المنهج الإسلامي منهج علمي:

كان كل واحد من المصلحين الذين أسلفنا ذكرهم مع اختلاف مذاهبهم ومواقعهم أبرز مفكر في جيله، وكان إجماع طرائقهم على الأخذ بالمذهب السلفي، ومبادئ دعوة محمد بن عبد الوهاب، واتباع الأمة لكل منهم في مكانه وزمانه، وتحقق بعض الإصلاح الذي دعا إليه كل منهم: إن بالأمر بالمعروف وتغيير المنكر كما صنع السيد أحمد، وإن بالسلاح كما صنع المهدي، وإن بالعلم كما صنع الشوكاني والألوسي، وإن يجوب الآفاق والتربية كالسنوسيين، وإن بالتعليم والتربية والمشاركة في إصلاح مرافق الحياة كمحمد عبده، كان كل أولئك على أن "هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله" وهو العودة إلى الأمر الأول.

ولا جرم إن أظهر ما يستوقف النظر عن دعواتهم:

١- إنها تعيد الفكر الإسلامي إلى صفائه من تخليط الحشويين، وتهدم الأفكار الباطنية والدعاوي الغيبية والعلوم اللدنية والانحرافات التي تصيب الفكر بالشلل والمجتمع بالتخبط والإرادة الفردية بالغيبوبة الكاملة أو الناقصة.

٢- أنهم جميعًا واجهوا تحديات العصر بمنهج علمي يحارب عدوين للأمة:

الأول: عدو لها من نفسها هو انعدام الثقة في نفسها والاستكانة أمام الطغاة، والتواكل في انتظار السماء أن تمطر الذهب والفضة، أو أن يساقط عليها الأولياء والشفعاء أو الشياطين النعمة أو النقمة أو اللقمة.

والآخر: عدو لها من خارجها – تردها جيوشه، كلما رفعت رأسها، إلى مجتمع الخرافات والغيبيات، وتفرض عليها الشحناء والشقاق كهيئة ما فرض هذا العدو نفسه بالسلاح تعاطي الأفيون على شعوب الصين.

ولقد كان عدوًا سافرًا لكل المصلحين: بجيوشه حينًا، وبفتكه وسفكه أحيانًا، وبأعوانه السافرين والمتوارين على الدوام.

٣- أن أقرب سير السلف منهم كانت سيرة ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب وكان لها الأثر فيهم، فتقشَّفوا كتقشفهم، ودعوا الناس صراحة للاقتداء بهم في منهجهم.

٤- أنهم مجمعون على إيجاب الاجتهاد وذم التقليد، والتفكير بحرية، مبتدئين بالقرآن والسنة، ومنتمين إليها. وما هو إلا منهج السلف الصالح، إذ يأخذ العلم من مصادره، وينتفع بنعمة العقل الذي ميزنا الله به، وأمرنا باستعماله، والاعتبار بواقع الكون وعجائبه التي أمكننا الله منها وأظهرنا عليها، وأمرنا بالنظر فيها بحرية، واستخلاص الدلالة منها بأمانة تقطع بوجوده سبحانه وتعالى. وعلى هذه القواعد – النزاهة والواقعية والأخذ بما هو محسوس وارتباط المعلول بالعلة – يجري الاستخلاص في سائر العلوم.

وهذا هو المنهج العلمي الذي أمر به القرآن وعلمته السنة.

* * *

يقول الشافعي في "رسالة الأصول": (وليس لأحد أبدًا أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم، وجهة العلم الخبر في الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس) ويتكلم عن القياس فيقول: (أهو الاجتهاد أم هما مفترقان؟ قلت: هما اسمان لمعنى واحد...) (.... والاجتهاد القياس.

(ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها، وهي العلم بالأحكام بكتاب الله، فرضه وأدبه وناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه وإرشاده، ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله، فإذا لم يجد سنة فبإجماع المسلمين. فإن لم يكن بإجماع فبالقياس. ولا يكون له أن يقيس حتى يكون عالمًا بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان

العرب، ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون صحيح العقل، وحتى يفرق بين المشتبه، ولا يعجل بالقول دون التثبت، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأنه قد ينتبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد فيما اعتقد من الصواب.

وعليه في ذلك بلوغ جهده، والإنصاف من نفسه؛ حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك. ولا يكون بما قال أعنى منه بما خالفه، حتى يعرف فضل ما تصير إليه على ما يترك، إن شاء الله).

ويستطرد في بيان أساس طريقة التجربة والتزام الواقعية والموضوعية ونزاهة التقدير والتقرير فيقول:

(.... ولا يجوز أن يقال لفقيه عدل غير عالم بقيم الرقيق أقم (قوم) هذا العقد ولا هذه الأمة ولا إجارة هذا العالم، لأنه إذا أقامه على غير مثال بدلالةٍ على قيمته كان متعسفًا....)

ويقول في "الأم" لينهي عن الوهم والتخيل وليأمر بالتزام الواقع: (وإن زعمتم أو واسعًا لكم ترك القياس والقول بما سنح في أوهامكم وحضر في أذهانكم واستحسنته مسامعكم حججتم بما وصفنا من القرآن ثم السنة وما يدل عليه الإجماع).

ويقول: (... فإن عدم واحدًا من هذه الخصال لم يحل له أن يقول قياسًا... كما لا يجوز أن يقال قِسْ لأعمى وصفت له... وهو لا يبصر ما قيل له... أو يقال سر بلادًا لم يرها قط ولم يأتها قط.. وليس له فيها علم يعرفه. ولا يثبت له فيما قصد سمت بضبطه، لأنه ليسير فيها على غير مثال قويم. وكما لا يجوز لعالمٍ بسوق سلعة من زمان ثم خفيت عنه سنة أن ياق لله قوم...؛ لأن السوق تختلف... ولا لرجل أبصر بعض صنف من التجارات وجهل غير صنفه.. قوم كذا؛ كما لا يقال لبناء انظر قيمة الخياطة ولا خياط انظر قيمة البناء!).

* * *

ويقول في "الرسالة" عن وجوب الأخذ "بالظاهر". (العلم من وجوه. منه إحاطة في الظاهر والباطن، ومنه حق في الظاهر، فالإحاطة منه ما كان نص حكم الله أو سنة لرسول الله نقلها العامة عن العامة، فهذان السبيلان اللذين يشهد بهما فيما أحل الله أنه حلال وفيما حرم أنه حرام. وهذا الذي لا يسع أحد عندنا جهلة أو الشك فيه. وعلم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء ولم يتكلفها غيرهم... وهي فيهم أو بعضهم بصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها. وهذا اللازم لأهل العلم أن يصيروا إليه.. وهو الحق في "الظاهر" كما تقتل بشاهدين. وذلك

حق في الظاهر. وقد يكمن في الشاهدين الغلط، وعلم إجماع وعلم قياس...). ويقول: (وأيهما كان فقد فرقوا بين حكم الظاهر والباطن، وألغوا المأتم عن المجتهد على الظاهر، وإن أخطأ عندهم، ولم يلغوه عن العامد).

وحجة الأخذ بالظاهر من التصرفات والعبارات قوله عليه الصلاة والسلام: "إنكم بشر وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئًا؛ فإنما أقطع له قطعة من النار).

ويبني الشافعي على ذلك: (فمن قضى بتوهم منه على سائله، أو بشيء يظن أنه خليق به، أو بغير ما سمع من السائلين – فخلاف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، لأن الله عز وجل استأثر بعلم الغيب وادعى هذا علمه).

وفي تفسير العقود وإنزال الأوصاف عليها من الصحة والبطلان يستبعد أي شيء "باطن"، ولا يقبل إلا "الظاهر".

يقول في الأم: (يبطل حكم الإزكان (الفراسة لمعرفة كون العقد ذريعة لمحرم) من الذرائع في البيع وغيرها. وتحكم بصحة العقد. وإذا أراد رجل أن ينكح امرأة ونوى ألا يمسها إلا يومًا أو عشرة وإنما نوى أن يقضي منها وطرًا، وكذلك نوت هي منه، غير أنهما عقدا النكاح مطلقًا على غير شرط). ويقول (لا يفسد عقد أبدًا إلا بالعقد نفسه. لا يفسد بشيء تقدمه ولا تأخره ولا بتوهم ولا بأغلب. وكذلك كل شيء لا تفسده إلا بعقده).

ولئن كانت المعاني هي المقصودة لا المباني، وإرادة المعنى آكد من إرادة اللفظ، إن اعتبار المعاني لا يرتب الأحكام إلا أن يكون المتكلم قاصدًا لها مريدًا موجباتها.

والآخذون بالظاهر يتقيدون بكل نية "تظهرها" الدلائل من لفظ أو قرينة. فهي عندئذ أمر ظاهر.

* * *

وهذه الأصول من منهج الشافعي تضع نصوص الكتاب والسنة ومعانيها وموضعها من الفكر الإسلامي كافة. وتلزم الناس الاجتهاد وسلوك وسائله وهي:

١- العلم.

٢- الاجتهاد وفحواه بذل الجهد واحترام الواقع الظاهر وإدارة المعلولات والعلل معًا.

٣- النزاهة الكاملة في تقدير وتمحيص العلل وترتيب النتائج.

٤- عدم الاستناد إلى نظريات مسبقة أو حقائق مفروضة والتزام ما يثبت.

٥- عدم الخضوع للميل الشخصي أو التفكير الباطني.

وهذا هو المنهج الذي نقلته أوربة في فاتحة عصر النهضة بعد القرن الرابع عشر للميلاد، بعد إذ قاومت الكنيسة المسيحية حرية الفكر وتدريس العلم الإسلامي قرونًا طويلة، وألزمت العلماء أن تنتهي نتائج أبحاثهم نهاية توافق مقولات الكنيسة، مهما دلت الدلائل على النقيض. فحوكم الكثيرون وأعدم منهم بعضهم.

تابع الفقهاء المسلمون منهج الشافعي في أصول الفقه، وانتقل المنهج، لأنه قرآني، إلى سائر فروع العلم الإسلامي في الطبيعة والفلك والطب والكيمياء والصيدلة والجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا وغيرها.

وجرى العلماء كالفقهاء على المنهج، وحسبنا الآن بعض أسماء تختارها من كل فروع العلم:

من جابر بن حيان – أول كيماوي في التاريخ – في القرن الثاني للهجرة إلى الرازي الطيب (٣٤٠ – ٤٢٠) إلى البيروني المؤرخ (٣٥١ – ٣٤٠) إلى ابن سينا الفيلسوف (٣٧٥ – ٤٢٨) إلى ابن الحسن بن الهيثم (٣٥٤ – ٣٤٠) عالم الطبيعة إلى المؤرخ المسعودي المؤرخ (٣٤٦) إلى القزويني الجغرافي (٦٠٥ – ٦٨٢) إلى التيفاشي (٦٥١هـ = ١٢٥٣) الجيولوجي.

ومن هؤلاء انتقل المنهج إلى روجير بيكون (١٢٩٦) إلى نادي بتعليم المنهج الإسلامي ونقل علوم المسلمين إلى أوربة كما تدفق سيل الترجمة إلى أهل أوربة من جامعاتها الكثيرة وشهدنا في القرن السابع عشر من الإنجليزي فرانسيس بيكون والفرنسي ديكارت (١٦٥٠) تفاصيل منهج جديد هو المنهج الإسلامي ذاته، وتبعه العلماء في أوربا وأمريكا ولا يزالون يتبعونه[٩٦].

وبانتصار الحرية الفكرية على قيود الكنيسة بدأت أوربة نهضتها المعاصرة. وباستعمال منهج التجربة والاستخلاص بلغت الحضارة العلمية والتكنولوجية مبالغها الحالية.

---

(٩٦) راجع كتاب المنهج العلمي المعاصر مستجد من القرآن للمؤلف دار الاتحاد العربي للطباعة سنة ١٩٧٦ ص ٩-٥٣.

* * *

وبعد: ففي العالم الآن حضارتان ماديتان تتجاريان.

الأولى: حضارة ورثها الغرب من وثنية اليونان والرومان ملاكها القوة والسيطرة وإطلاق العنان للإرادة "الفردية"، لم تحولها المسيحية عن طبيعته الوثنية ولم تصقل منها إلا الظواهر.

والأخرى: ملحدة لا تعترف بوجود الله. وتحتكر الدولة فيها السلطة والملكية والحرية. ولقد أفلست الحضارتان لخلوهما من الروح وفزعهما من الغد، وانتهى بها السباق إلى غير غاية، وسيطر عليهم الرعب النووي الذي يميت البشرية تماريق، يومًا بعد يوم، ليدمرهما، يوم يفرغ المتسابقان ما يختزنان من القنابل الذرية، وهي إذ تنتج وتختزن سوف تستعمل.

وانصرف أصحاب الحضارتين إلى تعاطي وسائل النسيان بالمخدرات تمتلئ بضحاياها المستشفيات الخاصة بالمدمنين في كبرى العواصم، وإلى الاستكثار المجنون من لذات الجسد ورفاه البدن وتكاثر السلع، يعيشون بها أيامًا لا يثقون فيها ويخافون غدها.

وكلتا الحضارتين تسترق الناس للإنتاج الكبير الذي تدفعه الآلات إلى أيديهم ولا تسعد به نفوسهم، وكلما ألهاهم التكاثر زادوا قلقًا ورهقًا!

والحضارتان تبحثان عن قيم اجتماعية جديدة، وكمثلها العالم الصاعد: فالأرض مفتوحة أمام قيم الإسلام وعقيدته لإصلاح أي مجتمع عصري بالمنهج الإسلامي، الذي عبر عن قيمة طاهر ابن الحسين في وصيته لابنه إذ ولى خراسان. فقال له.

(وليكن كنز خزائنك في عمارة الإسلام وأهله).

فالقيم الدينية تحدث القيم الاقتصادية وتطب لأدواء الحضارات جميعًا.

وإنما يضع الحواجز لقمع انتشار الإسلام في الأرض المفتوحة أمام ترويج أعدائه لخرافات المرجفين من أبنائه، ومحاولة أعدائه إخفاء المنهج الإسلامي الذي تحققت به الحضارات، كي لا يدرك الناس أن في الإسلام شفاءهم، وأن منهجه العلمي ومنهجه الاجتماعي يتخطيان مجاراة العصر إلى استباق أسباب التقدم.